البُشريات

1437 هـ – 2016 م

قصة شهيد كتبها شهيد !

قصة حقيقية من أرض الشام

كتبها

توّاق المهاجر

"أبو المثنّى المدني"

تقبله الله





تقديم أنس خطّاب

قصة شهيد كتبها شهيد !

(قصة حقيقة من أرض الشام)

كتبها /

تَوَّاق المهاجر

" أبو المثنى المدني "

تقبله الله

تقديم /

أنس خطاب

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على رسوله الصادق الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين :

{ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي . وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي . وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي . يَفْقَهُوا قَوْلِي }

هذه قصة حقيقية عن أحد شهداء بلاد الشام المباركة، كتبها أخي الحبيب صاحب القلم السيال / أبو المثنى المدني " تَوَّاق " – تقبله الله –، فهي قصة شهيد كتبها شهيد، وليس لمثلي أن يُقدم لهذا الأخ الفاضل، ولولا رغبتي في التشرف بتعريف القارئ بهذا الأخ الفاضل لما كتبت حرفاً.

تواق أو أبو المثنى المدني، هو أخ فاضل طالب علم حافظ للقرآن من بلاد الحرمين، نفر إلى الشام لنصرة إخوانه. نحسبه من الإخوة العاملين لدين الله سبحانه وتعالى، صاحب همة عالية، له العديد من المشاريع الدعوية المباركة التي كتب الله لها القبول، كحلقات تحفيظ القرآن للأشبال، ومشروع محلات " ابنة الإسلام "، وهو مشروع يهدف إلى نشر الحجاب الشرعي بين نساء المسلمين، حيث كان " تواق " هو أحد الإخوة المؤسسين لهذا المشروع المبارك، والذي انتشر في عدد من قرى ومدن الشام، وتسبب في تحجيب العديد من النساء والفتيات المسلمات، فجزاه الله خير الجزاء عن هذه الأمة.

وأما حلقات تحفيظ القرآن، فله فيها دور عجيب قَلَّ أن تجد مثله في ساحة الشام، وقد تعرفت على أخينا في رمضان الماضي من خلال هذا الدور المبارك، حيث رأيته في أحد المساجد يقيم مسابقة في القرآن الكريم في نهاية شهر رمضان، وقد شارك فيها ١٠٠٠ متسابق من الأطفال " ذكوراً وإناثاً " وكذلك الرجال والشباب !، وأما تلاميذه فكانوا يبلغون النصف من هذا العدد تقريباً، وفي نهاية المسابقة قام بتوزيع جوائز على المتسابقين بلغت مليوني ليرة سورية، وهو ما كان يعادل حينها عشرة آلاف دولار تقريباً !، فنسأل الله أن يتقبل منه هذا العمل.

كان " أبو المثنى " يشرف على العديد من حلقات تحفيظ القرآن للأشبال في عدد من المساجد، وقد رأيت من تلاميذه الشيء العجيب، فأحد تلاميذه بدأ الحفظ معه من جزء عم، وذلك قبل أكثر من عامين، حتى وصل الآن إلى سورة النساء، مع الضبط وإتقان التجويد، وآخر وصل إلى النحل في مدة أقل، وغيرهما الكثير من تلاميذ هذا الأخ الفاضل، وكلهم يقاربون الخامسة عشر من أعمارهم.

ووالله لما رأيت ما يقوم من جهد جبار في هذا العمل المبارك، انشرح صدري وسعدت نفسي بهذا العمل المبارك من هذا الأخ الفاضل، وتمنيت لو كنت مكانه، وإني لأتذكر فيه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : [خيركم من تعلم القرآن وعلمه].

وأما عن شخصه وخلقه وأدبه، فكان – تقبله الله – أخاً فاضلاً صاحب أخلاق سامية نبيلة، دائم البسمة، بشوش الوجه، تنظر في وجهه فترى إشراقاً ونوراً، وينشرح صدرك لرؤياه، يُدخل البهجة والسرور على قلوب إخوانه، شهماً، وقوراً، كريماً، محباً لدينه وإخوانه.

رأيت فيه أخاً عاملاً لدين الله، لا أظنه يهدأ لحظة عن العمل لهذا الدين، فهو بين الخطب والدروس والمواعظ وحلقات تحفيظ القرآن والمعاهد الشرعية الشبابية والنسائية ومشروع " ابنة الإسلام"، وفي وسط كل هذه الأعمال لا تفارقه ابتسامته العذبة، ولا تمنعه هذه الأعمال عن زيارة إخوانه في الله وتفقد أحوالهم.

يُظهر الاهتمام بإخوانه، ويشاركهم أفراحهم وأحزانهم، عظيم الاحتفاء والترحاب بضيوفه، لازلت أذكر كيف كان يلقاني بشوشاً مبتسماً مرحباً بي، ولا أنسى آخر لقاء بيني وبينه قبل استشهاده بأربعة أيام، دار بيننا فيه حديث طيب جميل، كما لا أنسى يوم أكرمني بنسخة من كتاب " بلوغ المرام "، أحتفظ بها حتى هذه اللحظة.

رأيت فيه خطيباً مفوهاً، وصاحب قلم أدبي سيال، يجيد الكتابة المشوقة، ولكلماته تأثير عجيب فيمن يقرؤها قَلَّ أن تجده عند غيره، ولعل سر ذلك صدقه، وكتابته بقلبه قبل قلمه !، وقد سمعت عن قلمه قبل أن أقرأ له، إلا أني لم أتصور مدى روعة قلمه حتى قرأت له، فرأيت في قلمه مستقبلاً زاهراً لأديب مسلم مجاهد يمكن أن يساهم في التقديم لمكتبة الفن الإسلامي، إلا أن الله أراد له أمراً آخر !، وسيجد القارئ في هذه القصة الرائعة مصداق ذلك.

وأما عن محبة الناس وقبولهم له فحدث ولا حرج، ومن المواقف الطريفة في هذا الأمر أني صليت يوماً في أحد المساجد التي يتردد عليها " أبو المثنى " ويعقد فيها بعض حلقاته لتحفيظ القرآن، وكان معي صديق لي، وبعد الصلاة جاءنا رجل كبير متقدم في العمر، وسألنا : هل أنتما من أصدقاء أبي المثنى ؟، قلت : نعم، قال : نحن نحب أبا المثنى، اللهم انصر أبا المثنى، ومن يحب أبا المثني، ومن لا يحب أبا المثنى طلقة في رأسه !، فابتسمت ضاحكاً من طيبة الرجل ومحبة الناس لهذا الأخ الفاضل، وأخبرت أبا المثنى يومها بهذه القصة الطريفة وقلت له مازحاً : يجب أن أظل محباً لك طوال عمري، وإلا فطلقة في الرأس تنتظرني !.

القصة التي بين أيدينا الآن من الكتابات الرائعة لأخينا " أبي المثنى "، قرأتها له قبل فترة، فرغبت في نشرها، لجمالها وروعة أسلوبه فيها، فأعطانيها قبل استشهاده بفترة يسيرة، ولكن قَدَّر الله أني انشغلت وتأخرت في نشرها، وكأن قدر الله أن يستشهد كاتبها ليكون عنوانها : " قصة شهيد كتبها شهيد " !، فلما فجعت بخبر استشهاد أخي الحبيب " تَوَّاق " في معركة " باشكوي " بحلب، طفقت أتخيل حال تلاميذه الأشبال وقد فجعوا باستشهاده، وكيف سيكون حالهم بعده !، فرأيتهم في مخيلتي وأهله وإخوانه يتوجعون ألماً وحزناً لفراقه، والناس في المساجد يفتقدونه، وشوارع " حلب " تبكيه، فكتبت هذه التقدمة، وأرسلتها إلى إخواني في " البشريات " لنشرها.

وختاماً أترك القارئ للاستمتاع بهذه القصة الجميلة، وجمالها وروعتها في حقيقتها وواقعيتها، فهي ليست قصة خيالية، وكذلك في سيولة قلم كاتبها وصدق لهجته، مما يجعل لحديثه مذاقاً خاصاً يخترق حواجز صدر القارئ متسللاً ليلامس شغاف قلبه، وأخيراً في استشهاد بطلها وكاتبها، فهي بحق " قصة شهيد كتبها شهيد " !.

اللهم اغفر لأخي الحبيب أبي المثنى المدني، وتقبله في الشهداء، وارفع درجته في عليين، وأسكنه الفردوس الأعلى من الجنة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، اللهم لا تحرمنا أجره ولا تفتنا بعده .. آمين.

أنس خطاب

بلاد الشام

الجمعة ٢٠ / ربيع الأول / ١٤٣٧ هـ - ١ / ١ / ٢٠١٦ م

قصة شهيد كتبها شهيد !

على ثرى الشام المباركة، وفي مدينة حلب الشهباء .. وقف رجل على شرفة المنزل يتأمل غُروب شمس يومٍ حزين.

بدأت الشعرات البيضاء تتسلل إلى رأس الرجل ولمَّا يتحقق حُلمه " الوردي " بعد .. غاب قرص الشمس فمسح دمعات تحدرت على خده.

قرأ مرة في " السيرة النبوية " أن : حمزة بن عبد المطلب ضرب أبا جهل .. فأكبرَ الموقف، وعاهد الله لئن زرقه بولد ليسمينّه حمزة.

مرت الأيام ثقيلة على الرجل وزوجته؛ فها هي السنة " الثانية عشر " تبتدئ ولم تتكحّل أعينهم بمولود يملأ فراغ حياتهما بعد .. استمرا بالصبر والدعاء ولم يقنطا.

في صبيحة يوم مشرق من سنة ١٤١٣ هـ، أحست الزوجة بجنين يلعب بين أحشائها؛ فبشرت الزوج المكلوم فلم تحمله الأرض من الفرحة وصدق ظنه بربه ..

أطلّ الجنين على الحياة فسماه والده " حمزة " كما عاهد الله .. تفتقت عروق حمزة على الطاعة وترعرع في بيت يحوفه الوئام وترفرف على أركانه طُيور السلام ..

كبُر حمزة واشتدّ عُوده فظهرت آثار النباهة والنجابة عليه وأثنى على ذكائه وأخلاقه القريب والبعيد .. وكبر في أعين والديه وأحبوه حباً جماً ..

حمزة .. شاب وضيء، عمره ٢١ ربيعاً، آتاه الله سلامة قلب وحُسن معشر.. من جالسه أحبه لطيبته .. صموتٌ وقور، هين لين، يألف ويُؤلف.. دائم البسمة.

حمزة .. جميلٌ كالورد، ريَّان الشباب .. طويل القامة بهيّ الطلعة، أبيضٌ كالثلج .. حباهُ الله جمالًا ملائكياً .. أثر الطاعة ظاهرٌ على مُحَيَّاه.

حمزة .. وجهه يشعّ إيماناً وجبينه يسطع نوراً .. ذا شعر طويل أشقر ناعم وعينين زرقاوين .. من رآه ظنه مهاجرٌ شيشاني !.

مرت الأيام .. فشاهد حمزة غدر اللئام، شاهد الطغاة يغتصبون الأرض والعرض .. شاهدهم يسفكون الدماء وينثرون الأشلاء فلم يتحمل الضّيم ..

كتب الله لسوق الجهاد أن تحيا في الأرض المباركة؛ فكان من أوائل المنضمين لساحات الوغى المنتفضين في وجوه العِدا .. ناصراً لدين الله.

لحمزة أخ في " إيطاليا " منذ سنين، قد أنعم الله عليه بالمال الوفير ورغد العيش وهو بحاجة إلى من يسانده .. فعرض على حمزة أن يرافقه.

ظن حمزة سيوافق، فزيارة إيطاليا أمنية آلاف الشباب .. ولكن حمزة لم يكن كالشباب .. كان مستقلاً بنفسه وطموحاته وآماله وآلامه.

حمزة اكتوى قلبه بنار القهر، يرى مجازر الدماء وصمت العالم المخزي فيطيش عقله ويقسم على الثأر للمستضعفين وهجر الترف والنعيم ..

حمزة ذاب قلبه شوقاً لرؤية الله ونعيم الجنة .. وتكسّرت لذائذ الدنيا أمام عينيه، أمام مشاهد السحل والقتل؛ فرفض اقتراح أخيه رفضاً قاطعاً ..

حاول أخاه أن يثنيه عن قراره، وأخذ يعرض عليه محاسن تلك الديار، وأن مستقبله هناك، لعل قلبه يلين، فكان يرفض ويقول : مستقبلي هنا وليسَ هُناك !

أضحت ألوان الدنيا رمادية في عين حمزة، كل الألوان الجميلة في جنة الأفراح .. حيث الخلود الأبدي والنعيم السرمدي .. فشغف قلبه بتلك الدار ..

الله أكبر .. حمزة ثابتٌ كالطود رغم المغريات والفتن .. مرة أخرى؛ حاول أخاه أن يقنعه بالهجرة إلى إيطاليا ولو بعد سقوط بشار ..

فكان جواب حمزة هذه المرة كصاعقة ضربت أوتار القلب الغافل، قال له : لا يا أُخيّ.. الطريق ما زال طويلاً؛ فإن انتهينا من بشار سنتجه إلى القدس فاتحين ..!

أُسقِط في يد الأخ، وعلم أن قلب حمزة نقي لم تخالطه الأدناس ولم تشوبه لوثة العصرنة .. وظل حمزة في أرض الملاحم مراغما لأعداء الله ..

حمزة أوجعه قلبه على حال أمته وتخلف شبابها عن ميادين النخوة والعزة .. فكان شهمًا مع المجاهدين، ملازمًا للجبهات ما بين رباط وانغماسات ..

دخل مع إحدى الكتائب فرآهم يدخنون ويُقصرون في الصلاة؛ فنهاهم مرارًا .. وكان يقول لهم : كيف سننتصر ونحن نعصي الله ؟ ولما لم يستجيبوا هجرهم ..

شاهد المهاجرون يتدفقون من كل أقطار المعمورة نصرة لدين الله، هجروا الأوطان والأهل والخلان .. فأُعجب بهم وتمنى القرب منهم ..

ذاتَ مساء صليت في أحد مساجد مدينة حلب، وبعد الصلاة انفضت الجموع إلا شاب ينتظرني وعليه آثار الحياء .. اقتربت منه فصافحته فدخل قلبي ودخلتُ قلبه !

كان معي صديق الدراسة والنفير " أبو البراء المدني " – تقبله الله – وقد كان يحب الجلوس مع شباب الأنصار، فجلس مع حمزة فأعجب بهدوئه وسلامة فطرته وفكره ..

أحب حمزة أبا البراء، وحينما انتهى اللقاء خرج فقال لرفيقه : والله جلست مع شيخ طيب وحبيب .. ما رأيت أحسن منه في حياتي كلها ..!

كان في جامع القرية الكبير لقاء أسبوعي بين " المهاجرين والأنصار " لتأليفِ القلوب وتقريب وجهات النظر ..

نظر حمزة إلى إخوانه المهاجرين ثم همس في أذني قائلا : هؤلاء أريد أن ألتحق بهم ..

مرت شهور وأيام وأنا ألتقي بحمزة في بيت الله، ألفيته محافظاً على الصلوات الخمس، وحتى مع اشتداد البرد أراه يأتي إلى صلاة الصبح متلثماً ..

صاحبي " أبو البراء المدني " ذا صوت شجي، فخصّص حلقة قرآن في المسجد بين العشائين .. فكان أول الطلبة حضوراً حمزة، وكأنه كان ينتظرها منذ زمن !

راحة القرآن وسكينته إذا غمرت الأرواح المتعبة هدأت واستكانت؛ لذا كان حمزة حريصاً على جلسة القرآن؛ لأنها دواء قلبه وغذاء رُوحه ..

أتى " أبو البراء " يوماً بأوراق فيها أحكام التجويد، فأعطاها حمزة ليقرأها ويستفيد منها .. لا زلت وكأني أراهم كالبلابل يشدون ويترنمون بآي القرآن في ساح الجنة !

ألحّ علينا حمزة أن نزوره في منزله لنتعارف أكثر فوعدناه، وقبل ميعادنا أتى نبأ استشهاد شقيق الروح " أبو البراء " الذي تاقت نفسه للشهادة زمناً طويلاً ..

فرحت لاصطفاء الله لصاحبي وحزنت على ذنوبي التي أخرتني عن اللحاق بالصحاب، ثم قلت في نفسي : وعدنا حمزة أننا سنزوره فلا بد من الإيفاء بالوعد ..

ذهبت الأيام .. أتاني حمزة ذات مساء يشاورني في إكمال طريق " القتال " أم سلوك طريق " طلب العلم " فقلت له : المقاتلين اليوم كثير ولكنّ أصحاب العقيدة قليل ..

قرّر حمزة أن يأخذ " استراحة محارب " ينهل فيها من معين العلم الشرعي ثم يكمل طريقه بوضوح وثبات .. فالتحق بالمعهد الشرعي ..

في المعهد الشرعي أتى حمزة بعزيمة متوقدة وذهن متفتح، فكنتُ ألحظ مخايل النجابة عليه فأرمقه بإعجاب .. وأرى له مستقبلاً مشرقاً ..

حفظ متن : الأصول الثلاثة، والقواعد الأربع، وشروط الصلاة، عن ظهر قلب مع إتقان مسائلها .. قلت : إن ثبت سيكون منارة علم بإذن الله ..

أثناء الشرح كان لا يفوّت كلمة إلا سجلها في دفتره، ويتفقد من حوله من الصحاب فيحرّصهم على الكتابة .. لا يرضى لهم أقل من طموحه الوقاد ..

كان عدد طلاب المعهد ٢٢ طالب، في الاختبار الأول والثاني حقق منهم ١٣ طالباً الدرجة كاملة والبقية قريبٌ منها .. كوكبة متميزة لم أُصادف مثلها في حياتي ..

حمزة كان أميز المميزين؛ فقد كانت إجاباته كاملة وافية تبلّ القلب وتشرح الصدر؛ لذا استحقّ " المركز الأول " بجدارة، فكرمته أمام الجموع فخورًا به ..

كان إذا تعلم المسألة عاد إلى البيت فعلمها الأطفال .. فإذا انتهى الدرس علمهم الفاتحة وقصار السور .. ثم أخذهم إلى المسجد لحضور صلاة الجماعة ..

قلبه الرّحُوم يحن على الأطفال.. مرة اشتهى " دجاجاً مشوياً " فطلبه من أبيه، وعندما أتى به إلى المنزل اجتمع حوله الصغار فأخذ يطعمهم ولم يأكل .. فياللإيثار !

ذات يوم أرسل حمزة هدية مغلفة، فتحتها فإذا هي دفاتر وأقلام فاخرة لم أرَ في الشام مثلها .. ثم قال : لم أرَ أحق بها من طلبة العلم المجاهدين ..

حمزة هيّن ليّن .. حين انتهى المعهد التأهيلي خيرته بين معسكر التدريب أو المعهد الشرعي الطويل، فابتسم بحياء ثم قال لي : الذي تريده أنت سأرضى به ..

رشحت حمزة لـ " المعهد الشرعي " لتميزه؛ فدخله بعزيمة مضاعفة، قرنها بصمت دائم وأخلاق هادئة .. فكان محل ثناء الرفاق والمعلمين ..

كان غالب وقته منهمكاً في دروس العلم، فإذا انتهى غسل أواني المطبخ، ثم يقضي بقية وقته بين صفحات القرآن .. قائمٌ بالليل عاملٌ بالنهار ..

كان هذا دأبه في المعهد " متعلماً، خادماً، قارئاً " حتى ابتدأت فتنة اقتتال الفصائل فتوقف المعهد؛ فأتاني يطلب كتاباً يقرؤه فأعطيته : " معالم في الطريق "، لسيّد قطب ..

طلب مني أيضاً " متون طالب العلم " المستوى الأول والثاني ليكمل حفظ " الأربعين النووية، وكتاب التوحيد "، فأعطيته الأول ووعدته بالثاني غداً ..

حين ابتدأت الفتنة كان يخشى من الدماء، فكان يحذر أصحابه كثيرًا من حرمة الدم المسلم، وأنّ الواجب سد ثغور النصيرية أو الاعتزال في البيوت والمقرات ..

في مساء تلك الأيام كان القرار بمنع " حظر التجول " ولكنه كان حريصًا على أداء الصلوات في المسجد، مع تمنع والديه .. وكأن عبيرَ المسجد خالط بشاشة قلبه ..

قام من نومه صبيحة الثلاثاء ٤ / ٤ / ١٤٣٥ هـ فتذكر أن المسجد معتمٌ مساءً لانقطاع الكهرباء؛ فقرر أن يشتري له " شُموعًا " .. لعلّ الله أن ينيرَ قلبه وقبره بإنارته لبيت ربه ..

أتت أمه فجلست مقابله ثم فاتحته بموضوع حساس .. أخذت تقنعه بالبحث عن " فتاة أحلامه "، فشعره الأشقر ووسامته تتمناها آلاف الفتيات ..

لكن حمزة كانت عيونه متطلعة إلى السَّماء؛ فأخذ يقول لأمه : ليس الآن يا أمي .. وكأنه شعر أن فتاة أحلامه هي من حور الجنان .. وقد اقترب اللقاء ..

كان قد اشترى بدلة " عسكرية " ليتزيا بزيّ المجاهدين، وعندما سلك طريق العلم وضعها على الرف ولم يلبسها حتى يعود إلى ساحات الوغى مرة أخرى ..

قبل أن يخرج لصلاة الظهر وشراء الشموع .. لبس البدلة " العسكرية " لأول مرة ولم تكن هناك معركة .. ولكن دقات قلبه أحست بأمر ما ..!

صلى الظهر، وسلم على رفاقه، ثم ذهب ليشتري الشموع، فتذكر أطفاله فاشترى لهم حلوى وأتى لهم بها .. كان يحب إدخال السرور على من حوله ..

أكل الأطفال الحلوى وفرحوا وكأنه يوم عيد .. كان ينظر إليهم برحمة وهم يأكلون ويضحكون فيراهم كأجمل لوحة فنان رسمها بريشة الفرح وحبّرها بمداد المحبة ..

اقترب وقت صلاة العصر .. فطلبت منه أمه أن يأتيها بعد الصلاة عند خالته ليأخذها؛ فودعها ومضى إلى المسجد حاملًا الشمعات بجيبه ..

كنتُ لحظتها في المسجد مع أطفال القرآن، ففجأة سقط " برميل " بجانبنا وتناثر علينا الزجاج من كل مكان .. وضعت يدي على قلبي خوفا على الصغار ..

ظننت الصغار سيفزعون، ولكني فوجئت بضحكاتهم المدوية ! ثم أخذوا ينشدون : هذا برميل رقم " ٣٣ " وما بتخوفنا يا بشار ..

طرق الباب " أبو النور " – أحد طلاب المعهد – فبشرني بأنه لم يصب أحد، فحمدت الله ثم حرضته على الرباط مع " حمزة " والرفاق .. فالجبهات فارغة وباكية ..

بعدما نطقت باسم حمزة طُرِق باب الغرفة بقوة مفزعة فدخل " أبو أديب " مفجوعًا ليقول : عظم الله أجركم في صديقنا حمزة، طارت شظية على قلبه من البرميل فاستشهد !

صُعِقت من الخبر !!

وظللت عدة مرات أكرر عليه الاسم لعله غيره، فلما تيقنت أنه هو صاحبي عقدت الصدمة لساني وأشحت بوجهي لئلا يروا دموعي ..

لم أشتفي من لقاء حمزة بعد .. بدأت معه الطريق وبنيتُ معه الآمال .. فلما تمكن من قلبي رحل خلسة، وطار إلى السماء بصمت؛ كما دخل قلبي بصمت !

يا الله .. بكيت على حمزة حتى تخضّب خدي من الدموع .. بكيت على القلب الطاهر كطهارة المزن، بكيت بُكاء الفرح لاصطفاء الله له ..

حمزة طارت رُوحه إلى " حواصل طير خضر " بإذن الله تسرح في الجنة .. بعيدًا عن الضجيج طار بصمت وهُدوء كما كان يحب الصمت ..

من الزاوية الأخرى؛ حمزة كان مجندلاً بدمائه بجانب والده .. نزف بصمت حتى سكنت روحه، ثعبت دماؤه الزكية فروّت الأرض المباركة؛ لتبسُق رياحين النصر !

صدق إحساس حمزة .. في الصباح تمنع من نساء الدنيا، ولعله في المساء أمهر نساء الجنة دمه القاني؛ فهو يعانق الحور العين بإذن الله .. يا رب نوله مناله ..

بكى والده حتى اخضلّت شعرات لحيته البيضاء .. ثم أدخل يده في جيب حمزة فوجد " الشموع " وفي جيبه الآخر " متون طالب العلم " .. وقد تقاطر عليها دمه الزكي ..

قبض والده على يده وقال : حمزة حبيبي إذا تسمعني شد على يدي؛ فارتخت يد حمزة .. فبكى والده، وحمل الشموع ثم قال : والله لأوصلنها لك يا بُنيّ ..

قطرات الدم الزكية انسكبت على الشموع والمتون؛ لتنير لشباب الأمة الطموح طريقه وتسطر لهم قصة مسربلة بدم الهداية والجهاد !

أتى والده بكتبه؛ فتأثرت حين رأيت إرثه .. حمزة لم يترك خلفه دفاتر حب وغرام، بل ترك دفاتر علم وقرآن .. وجدت قرآنه الأحمر ودفتره الأزرق، وكتيبات التوبة والجهاد ..

قلَّبت في أوراقه؛ فوجدت أوراق " التجويد " التي أعطاها أبو البراء لحمزة .. فأحسست بلوعة فكتبت بمدادها على صفحة الورق : " من شهيد إلى شهيد " ..

ووجدت في القصاصة :

لئن لم نلتقي في الأرضِ يومًا   وفرّق بيننا كأسُ المنون

فموعدنا غدًا في دار خلدٍ   بها يحيى الحنُون مع الحنونِ

حينما استشهد "أبو البراء" حزن " حمزة " لفراقه فحكى لوالده كثيرًا عنه، أتاني والده مهنئاً وعيونه تفيضُ من الدمع .. وحين استشهد حمزة رأيت الدمعات مرة أخرى ..

توجهت إلى بيت " حمزة " لأهنئهم وداخلي روحٌ مشطورة، شطرها فراق أبي البراء ثم حمزة .. رحلوا فوفيت بوعدي لحمزة لزيارته ولكني دخلت بيتهم وحيداً ..

قبل استشهاد " حمزة " بيومين سلمت عليه في المسجد ورأيت معه طفلاً فقبلته، وبعد استشهاده رأيت الطفل الذي كان معه حزيناً فقبلته أخرى وقلبي مفطورٌ عليه !

في العزاء .. رأيت الصغار الذين كان يعلمهم القرآن ويأخذهم إلى المسجد وعلى وجوههم مسحة حزن لفراق حبيبهم ومعلمهم ..

رأيت على عيون الأطفال بريقاً لامعاً .. بريقاً يبشر " حمزة " أن قلوبهم الصغيرة التي سقاها من دمعه وبذل لها مهجته ودمه ستنتفض لتكمل طريق العزة ..

قبل استشهاده أرسل لقريب له مقصر محاضرة " أحوال العابدين " للأسيف : خالد الراشد .. ثم لام نفسه المقصرة في قيام الليل أمام ذهول قريبه !

صبّرت والده فقال : والله صابر يا ولدي، لكن إجباري نحزن على هذه الوُرود التي تربي الأجيال وتنصر الأمة .. لو واحد مثلنا مات ما حزنا عليه !

خرجت من بيت " حمزة " وداخلي خليط من الحزن والفرح داخل روحٌ مثلومة ثلمها رحيل الصحاب .. واحداً تلوَ الآخر ..

نظرت إلى يدي فإذا بها المتن الآخر الذي طلبه حمزة .. أرجعته إلى الرف وأبقيته .. فحمزة قد انتهت رحلته وفاضت رُوحه ..

حتى كبار السن بكوه؛ فهذا " حاج علي " على بوابة الثمانين رقّ عظمه ولحمه، أغلب يومه يقضيه في المسجد .. بكى لاستشهاد حمزة وقال : كل صلاة كان يسلم علي ..

صبيحة يوم استشهاده الثاني كنت أستمع لنشيد أبي البراء في رثاء " شهداء منغ " فقلت في نفسي : رحل الأحباب والأصحاب ..!

ثم سمعت مقولة دكت عرُوش القلب : وكم ممن نصر عقيدته وأمته باستشهاده، ما كان يملك أن ينصرها ولو عاش ألف عام كما نصرها باستشهاده ..!

تأملت؛ فإذا صديقي " طالب علم، مجاهد، ملازمٌ للمسجد " وخاتمته شهادة في سبيل الله .. غبطته وقلت : لمثله فلندوّن السير ..

رحل " حمزة " وما ملأتُ عيني منه، رحل وله بين الخافقين مكانة بحجم السماء .. رحل وبكته حتى الطيور في أوكارها ..

تكتظ الجنة بالعابرين ..

مليئة بأطيار بلُّوا تراب الشام بدمائهم ..

أجسادٌ تبيع .. ورب يشتري .. والسوق ساحات الجهاد .

بكى على رحيله الكبير والصغير؛ حتى البلابل والعصافير أضحت حزينة .. فرحيل الشرفاء فاجعة موجعة !

خطب خطيب الجمعة عن حمزة وذكر قصته وخاتمته الحسنة فأبكى الحضور وزرع فيهم الأمل بعد أن ظنوا أن الأمة قد ضنّت بأمثال هؤلاء الشرفاء .!

بعد رحيل حمزة .. محمد يُطفئ آخر " سيجارة " ويعلنها توبة لله .. ومن بعده خالد وسعد وعبدالهادي وبراء وغيرهم .. ماذا فعلت يا حمزة ؟ دم الشهيد نورٌ ونار !

طيفُه يمر كنسناس الهواء المنعش فيداعب أوتار القلب .. الحياة بائسة بغير الشهداء .. هم من يبعث فينا حياة أخرى !

قصة " حمزة " .. أنفقت في كتابتها من الدموع؛ قدر الذي استهلكته من المداد .. ثم غرستها في بُستان الخلود ..

يا شباب الأمة .. تاريخنا حافلٌ بأحفاد خالد والبراء .. فافخروا باستشهاد " حمزة " وبقصته؛ فهي وربي أجدر من قصة ألف جيفارا ومانديلا !

سلامُ الله عليك يا حمزة حين ولدت، وحين مت، ويوم تبعث حياً .. سلامٌ على رُوحك في الخالدين ..

كتبها | توّاق .. !

١٥ / ربيع الآخر / ١٤٣٥ هـ